الفصل

٣

معاذير المفاجأة والإذهال

١- كيف يستطيع المرء أن يكسب الوقت ويسكت الآخرين:

ومن الأساليب ذات الأثر البالغ في كسب الوقت فيما يتعلق بالذريعة، وتجنب التعرض لسؤال غير مستحب، أو تأجيله على الأقل، إلى أن يكون خطر ببال المعنيّ شيء قابل للتصديق، الشواهد الملائمة من الأدب، فلا تقولَنّ «أنا لا أعرف، ولا أقرأ» وأنت تستخدم هذه الكلمات المجنحة بتواتر كبير، ولا تعرف أنها ترجع في الأصل إلى أدباء وكتاب مشاهير.

لقد عاش فرع المسرحيات الهزلية في المسرح بالمواقف العويصة الحرجة، مواقف المعاذير التي تُعْكَس بصورة مطلقة وتزيد الوضع سوءاً لأنها تجرُّ وراءها تعقيدات جديدة، أما الجمهور فيصرخ بأصوات حادة ويزعق، من فرط السرور، وأما الممثلون فيمثلون حالة الانفعال، والفزع، والخوف القاتل أو الهستيريا، والمتفرجون يستمتعون استمتاع الملوك، مهما يكن الشَّرَك الذي زلت فيه قدم العاشق المسكين أو الزوجة التي تضبط متلبّسة.

والمثال الكلاسيكي: الزوج يفتح باب غرفة النوم ويجد زوجته وصديق العائلة في سرير الزوجية، وتتوالى معاذير اللذين فوجئا، على نحو يشوبه الذعر.

«لقد أراد الكهربائي أن يصلح مصباح منصة النوم وكان يبحث عن المأخذ الكهربائي»

«جاء مُركِّب جهاز التدفئة، وكان الجو بارداً في الحجرة حتى لقد اضطر إلى تدفئة أصابعه قليلاً... آه، أصابع القدمين».

«لقد أراد هانز أن يبادر إلى نجدتي، لأني صرخت صراخاً، إذ كانت هناك فأرة، ثم هربت...»

ويكون سرور المتفرجين كبيراً، فالمعاذير غبية إلى حد يجعلها ممتعة! ثم إن المتفرج نفسه لم يمّسسه سوء! وإنما المسألة مسرح، وهو يهدف بذلك إلى نتائج تتعلق بالإضحاك. أجل، فلتضع يدك على قلبك - ما الذي كنتَ خليقاً أن تقوله في مثل هذا الموقف؟ قد تقول بحكم كونك زوجاً مغيظاً محنقاً: «هذه إذاً هي النقطة الجوهرية في المسألة!» أمّا الزوجة المحتشمة التي غلب عليها الخجل فتقول «الفأس في المنزل توفّر النجار!» وقد لا يكون غوته وشيلر، على الرغم من انتمائهما إلى الأدب الرفيع، ملائمين على غرار هذه الملاءمة.

وهناك حِكَمٌ جمة العدد من أمثال هذه الحكم التي يسمونها «الحكم الشعبية»، تُستَمدُّ من نصوص أدبية مشهورة، على أن المحبوب منها على وجه الخصوص مسرحية فاوست لغوته بكلماتها المجنَّحة، مثل «النقطة الجوهرية في المسألة» أو عبارة: بالذهب يتعلق الناس جميعاً وعليه يتدافعون ويتزاحمون - «الويل لنا، نحن المساكين» «ههنا أقف الآن، أنا الأحمق المسكين، وأنا ذكي بالقدر الذي كنت عليه من قبل؟»

obeikandl.com

وحتى مَنْ لم تسبق له قراءة فاوست فإنه يعرف الشواهد بحكم كونها من الأمثال وما من شك في أنها جدّ معروفة، ومن أجل ذلك لا يوصى باتخاذها معاذير على وجه الخصوص.

على أن المرء يُحْدِث المزيد من التأثير والانطباع بالصياغات التي تعد غير مألوفة إلى حدّ ما، فقد حدثتني أمي، بكثير من السرور والاستمتاع، أنها ارتكبت وهي في الحادية عشرة إذ كانت تنشد القصائد الدرامية بجد ونشاط - خطيئة ما، أمّا ماهية الخطيئة فما عادت تعرفها.

وكان من المألوف في تلك الأيام، في الأسر البورجوازية المحترمة، أن تكون العقوبة بضربات يسيرة، ببراجم الأصابع، على الرأس، أو بصفعات، وعلى هذا فقد اتخذ الجَدُّ وضعية عَدْوِ الخَبَب ليعدو في أثر البُنَيَّة غير المطيعة، التي كانت تعدو حول منضدة حجرة الطعام وقد تولاّها الفزع، وحين اقترب منها إلى حد يهدد بالنيل منها رفعت أمي يديها الراجيتين - بأسلوب يبلغ أقصى حدود الدرامية، وصاحت شاكية: أمسك أيها الأب... فقد كفانا هذا من اللعبة القاسية! «أما المطارِد المذهول فأمسك هنيهة وقد استحوذ عليه العجب والاستثارة، وقال: شيلر! وكان هذا من كلمات قصيدة «الغطاس» التي أرادت بها ابنة الملك أن تحول بين أبيها وبين إغراء الفتى الجميل بالعودة مرة أخرى إلى أعماق البحر التي تغلي وتفور. وانتهت المطاردة وقد تأثر الجد من المعرفة الأدبية عند الصغيرة، وجاءت العقوبة ملطَّفة: يومان من دون عقب المائدة (من فاكهة أو حلوى).

وأمثال هذه المعاذير الذي تذهل وتفاجئ يوصى بها بحرارة بالغة! فلتحضر لنفسك مخزوناً يسيراً من الشواهد الأدبية، وعندما يكون أمامك نِدٌّ في الحوار يعد عنيداً على وجه الخصوص، وبارعاً في الكلام، وهو من أكثر الناس حاجة إلى الظهور والاعتراف به، وممن يسَرُّون بالنقد (وهذا النوع واسع الانتشار في المجال المهني، مع الأسف)، فهناك وصية جيدة جداً، فأنت يؤخذ عليك، سواءً في المكتب أم لدى السلطة، أنك اتخذت قراراً معيناً، ويقوم موجِّه الأسئلة، أو موجه الإدانة، بالدفع بك، إذ يحشرك في زاوية ضيقة، عن طريق اتهاماته، وأنت تقاوم وتدافع - لكي تكسب الوقت ولا تقول الحقيقة مباشرة - بالذريعة التالية: «لقد قلت في نفسي: هذا الرجل يمكن أن يقدم إليه العون - مثلما قال غوته، ولذلك اتخذت مثل هذا القرار في حالة السيد ماير».

على أن الزميل المتعالم سوف يمسك هنيهة وقد تولاّه العجب والاستثارة، ويفكر لحظة ثم يقول:

«قد يكون من حقي أن ألفت نظرك إلى هذا - فهذا الشاهد من كلام شيلر! فإذا شئت أن تورد شاهداً فليكن على وجهه الصحيح!»

وتجيبه أنت على ذلك بقولك: وشيلر، بالطبع! كلاًّ، ما أكثر ما يزعج، إذاً فهو شيء من هذا القبيل! إنها غلطتي، وشكراً لتصحيحك شيلر - بالطبع! إذاً فما الذي كنت أريد أن أقوله في الحقيقة...؟»

أتراك تلاحظ أن خط عملية تحويل الانتباه هنا يودي وظيفته على

نحو جيد حقاً؟ ففي حالة الناس الذين يعرفون دائماً كل شيء ويصححون كل شيء، تحدث مثلُ هذا العجائب! ولابد لك أن تعلم بالطبع، أن الشاهد يرجع إلى شيلر، غير أنك أنزلته عن قصد ووعي منك في بنية الاستجواب، وبذلك تكسب وقتاً وبذلك تعطي المهاجم شعوراً بالرضى والاغتباط من جراء كونه على الجانب الصحيح في عملية التصحيح هذه التي لا أهمية لها البتة، ومن جراء كونه صحح لك!

والآن سوف تضطران، كلاكما، إلى العودة إلى لب الموضوع - لأن المتعالم أيضاً لم يكن له بد من أن يفكر ويقدر، لحظة من الزمان في مسألة هل كان المعنيُّ بالشاهد غوته، أم شيلر.

وبالمناسبة - عليك أن تظل ملازماً لهذين الأديبين، أو لفلاسفة معروفين، أو لساسة معروفين.

ويأتي مرة أخرى، جَوٌّ مكتبي: «كلا، كلا، فما يجوز لنا أن نرتضي هذا! فأنا لا أرتضيه.

ويأتي مرة أخرى، جوٌّ مكتبيٌّ: «كلا، كلا، فما يجوز لنا أن نرتضي هذا! فأنا لا أرتضيه. أنا لا أستطيع إلا أن أقول مثلما قال بسمارك: «إن أشدَّ الناس تُقى وورعاً لا يستطيع أن يعيش بسلام حين لا يروق هذا للماكر الخبيث!»» (فأنت تعلم بالطبع أن هذا هو، مرة أخرى، شيلر، الشيخ الطيب). أو:

وأنا أمثل وجهة النظر هذه أيضاً، في مسألة تخفيف وطأة الضرائب، من دون تهاون! فحتى وزير الاقتصاد السابق، إيرهارد، قال في تلك الأيام، في صدد الحديث عن المعجزة الاقتصادية: لا بدّ

أن يحصل كل مواطن، في يوم الأحد، على دجاجته في وعائه!» - فـإذا لم يصدر عن شريكك في الحوار رد فعل، وتقبّل من دون معارضة، مسألة أنَّ لو دفيغ إيرهارد كان يدافع عن حق المواطن في أن تكون له دجاجة في إنائه يوم الأحد - تستطيع أن تتوقف بعد جملتين أخريين، ثم تفكّر، وتقول:

كـلاّ، رويدك، لحظة، لم يكن هذا إيرهارد، أبداً! لقد كان هذا، بلا ريب، أجل، كان هذا... (لويس) الفرنسي، الرابع عشر، كلا، أنا لا أقصد إلى شيء سيّء!، فهذا أمر يمكن أن يحدث. إذاً لا بأس - إلى أين كنا وصلنا في حديثنا؟ يا للعجب...».

فالرجاء أن تلاحظ: تصحيح المرء خطأه بنفسه يُحدِث دائماً أثراً واضحاً صريحاً، يجرّد من السلاح، فالرجل لا يخجل، ويسلم بغلطته (في هذه النقطة غير ذات الشأن) وبذلك تحوّل الانتباه عن المسألة الحرجة، وتستطيع أن تستجمع طاقاتك، وتبدأ من جديد.

وفي أثناء إرسالٍ حيّ حول البلاغة سألتني رئيسة الجلسة كيف يكون ردّ فعلي حين لا أعود أعرف متى أفقد الخيط الأساسي في الموضوع؟ وما هو العذر الذي أتخذه حينئذٍ؟ فأجبتها: «لا أتلعثم بحال من الأحوال أو أقول: نعم... آه... همّ.. لا... فهنا توجد إمكانات أخرى...»

وهنا توقفت (في الإرسال الحي) وصحت بحرارة: «كلكتا! لقد كان اسم الفيلم كلكتا! الفيلم الشهير، الفيلم المفضّل، مع إنغريد برغمن!» وأومأت رئيسة الجلسة إيماءة الموافقة، بحرارة، قائلة: أجل، مع همفري

بوغارت!» أنظر في عينيّ، يا صغيري... بالطبع! ولكن كيف يخطر ذلك ببالك الآن؟»

«استميحك العفو، ولكن العنوان لم يخطر ببالي، ببساطة – منذ صباح اليوم! إذاً كنتِ تريدين أن تعرفي ماذا يقول المرء عندما يفقد الخيط الأساسيّ في موضوع ما...».

وشرحت في الإرسال أنه لا بُدَّ لكلا الشريكين في الحوار الآن أن يعودا، من ذريعة المفاجأة هذه، من جديد، إلى نقطة الانطلاق، ويتمكن المتعرض للهجوم في هذا الوقت من أن يستجمع شيئاً ما، ويلي ذلك الأسئلة الأخرى من قبل رئيسة الجلسة. وفي نهاية الإرسال سمعت في رأسي صوت مطرقة صغيرة: كازابلانكا! لقد كان اسم الفيلم «كازابلانكا»، وليس «كلكتا»! ولكن ما من إنسان خاطبني في ذلك. وكان في الاستوديو خمسة عشر رجلاً، ووصلت إليَّ في بيتي بضع مكالمات هاتفية. وما من شك في أن معظم هؤلاء كانوا يعرفون الفيلم، غير أنهم لم يلاحظوا ذلك.

وفي اليوم التالي، وفي ساعة من ساعات الظهيرة. قالت زوجة من أزواج المتعالمين، تهدد بإصبعها، من باب الدعابة: لقد ارتكبتِ خطأً. فقد كان عنوان الفيلم «كازابلانكا»، وقلت على أثر ذلك:«من المؤسف أنك لم تكوني في الاستوديو! ولم أكن أنتظر إلا هذا. وصاحت قائلة: «يا للعجب، لقد كانت هذه حيلة! ولكن هذا حسن، ولا بدّ لي أن ألاحظ هذاً». لقد كانت زوجة المتعالم راضية كل الرضى.

ولا يهمّ ماهية السؤال المهني، أو السؤال المتعِب الذي تقوم به، وأنت ما زلت لا تعرف الجواب: فإن الأثر المترتب على تحويل الانتباه، في حالة لودفيغ إيرهارد الذي ورد اسمه بطريق الخطأ - وكلكتا التي تمثل جواباً خاطئاً، يعطيك فرصة لالتقاط الأنفاس، وتستطيع بعد هذا «التشويش»، أن تحاول أن تبدأ من جديد، عند الموضع الحرج، في سلوك طرق الالتفاف من جديد.

وفي حالة معاذير الإذهال، مع الخاطرة المفاجئة توجد إمكانات جمة العدد تستطيع أن تختارها اختياراً نوعياً يتناسب مع عقليتك، لكي تكوّن لنفسك مخزوناً من أمثال هذه الكلمات التي تفضي إلى نتيجة محددة.

ونأخذ من جديد سؤالاً تنقيبياً وغير مستحب إلى أقصى الحدود، من الحياة المهنية: «لماذا وعدت السيد مايَرْ بتلبية رغائبه؟ فقد كنا نريد أن نرفضها بلا ريب، رفضاً مطلقاً؟، وكان المفروض أن لا تتم الموافقة على الاقتراح!»، وأنت تبدأ الجواب على النحو المألوف تماماً:»لقد دققت في هذا كله. وكان من الواضح عندي بالطبع.. أنه هو الجدول الكبير! بالطبع! الأندلس! لقد هرشت رأسي هرشاً، لم يخطر ببالي اسم النهر، أرجو المعذرة، فإن شيئاً كهذا يجعلني مجنوناً كل الجنون! الجدول الكبير - أجل، إذاً أين كنا نظل واقفين... هل تنتهي بك الأمور، أنت أيضاً، إلى هذه النهاية؟ إذاً فهو شيء كهذا... ماير... صحيح... ماير... وفي الحقيقة كنا نعتزم رفض المقترح، ولكن بعد ذلك...».

وفي هذه الأثناء تكون قد كسبت بعض الوقت، وتستطيع أن تفكر. وفي أغلب الأحيان يؤكد شريك الحديث في هذه المرحلة سؤاله، ويكرر قائلاً: «أجل، لماذا أقررتُ الاقتراح الآن؟ وفي هذه الأثناء لا يعود مُوَجِّه

السؤال مشحوناً بهذا القدر تماماً، ولا يكون عدوانياً. إلى هذا المدى. ولا بد أن تكون استغللت المكسب الزمني اليسير: فإما الكذب والخداع، وإما الإدلاء بالحقيقة.

وحين لا تعرف على الإطلاق ما تواصل حديثك فيه، فمن المستحسن أن تطلب من سائلك فرصة بأن تقول: «هلاّ أعطيتني لحظة من الزمن، فأنا أودّ أن أصوغ أسباب قراري مرة أخرى بوضوح». وإذا أمكن ذلك، وكان ملائماً، ففي وسعك أن تقول أيضاً: سوف أسجل أسبابي خطياً، فهذا أفضل عندي، ثم إن الموضوع الآن بات خارج تصوري إلى حدٍ ما». ثم إن معاذير الإذهال فعالة جداً عندما تظل في المجالات المألوفة فيها والتي تبدو لك أيضاً قابلة للتصديق في بيئتها. وأكثر ما تكون سهلة عند أنصار ألغاز الكلمات المتقاطعة. فعندما يعرف المرء في مشروعه، وفي حياته الخاصة، وفي مهنته، أن لديك هذه الهواية سوف تخطر إحدى الكلمات المفاجئة: «الجدول الكبير» أو «كاسيوبيا» أو «سورو بيسيدِن» - والآن لن يكون من الصعب أن تخطر ببالي الكلمة الخاصة بالطائر الأصلي، من جديد». وحتى مصطلحات الطب التي ما تفتأ تستعمل اليوم، المرة بعد الأخرى، يمكنها أن تفيد بصفتها مقاطعة مفاجئة وأن تشكل بذلك تحويلاً للانتباه. إنه مصطلح (كيرنسبينتوموغرافي)... صحيح... وعن هذا كان الحديث بالأمس وكنت أريد أن أذكر الكلمة على نحو مطلق (كيرنسبين...).

والرجاء أن تلاحظ: أنك سمعت هذا المفهوم أو ذاك، أو قرأته منذ وقت غير بعيد - فدوّنه. وربما كان في وسعك أن تستعمل معاذير الإذهال هذه، ذات مرة لتكون عوناً لك.

على أن ما هو أسهل ملاحظة سيكون أغنية منفردة مع الآلة (Arie)، أو مغنية، أو أوبرا «الآن حظيت بهذا، للجمال وحده نذرت حياتي. هكذا كان نص الأغنية المنفردة... وهنا تنازعت بالأمس، أكان الملحن بوكشيني أم فيردي، غير أنه كان فيردي، بالطبع. آه، عفواً. ولكن بصفتي نصيراً للأوبرا...» (وهي بالطبع ليست للاستعمال عند عُبّاد الديسكو أو الرياضيّين فحسب، من أولئك الذين لم يدخلوا قط داراً للأوبرا).

وهنا كانت أسماء مشاهير الرياضيين خليقة أن تكون أقوى مفعولاً، من حيث كونها مقاطعة مفاجئة، لكسب الوقت: «الآن عرفت ذلك من جديد. لقد كان هذان فريتس وأوتمارفالتر، بالنتيجة ٣: ٢ ضد هنغاريا! الأخوان فالتر بالطبع! وأحرزنا البطولة العالمية! شيء لا يُنسى!».

وحتى العظماء الطاعنون في السن إلى أقصى الحدود يمكن استخدامهم أسماء برّاقة مفاجئة. «كاركشيولا وبيرند روزيمايَرّ

- أما زلت تعرف هذين؟

واعجباً، والبرق الأسود من كيتس...».

ومرةً أخرى: أرجو أن تختار هذه الضروب من تحويل الانتباه من مناطق معروفة بالقياس إليك وبالقياس إلى موضوعاتِ اهتمامِ بيئتك. ولما كانت أهم المعاذير وأكثرها حسماً هي التي يتم استخدامها، فإن ما يسعفك هنا معرفتك بهوايات الزملاء. ومع ذلك تستطيع أيضاً أن تستخدم الحيلة المزدوجة، حيلة الخاطرة الزائفة وتدع التصحيحات يجريها الزملاء. (كلكتا - كازابلانكا). وفي حالة

الرياضيين تقول كذلك: «فريتس وأوتمار فالتر - وفي عام ١٩٥٤ أحرزنا بطولة العالم ضد إيطاليا بالنتيجة ٣ - ١٢! ماذا، أوَكانت هنغاريا؟ بالطبع! هنغاريا! ما أحسن أنك صححت قولي!» وفي حالة الأغاني المنفردة تقول: «الفراشة» وقد كانت هذه «توسكا». وما ينبغي لك أبداً أن تشتطّ بكثرة ما تطالب بها شريكك في حالة معاذير المفاجأة! والأفضل أن تسير على خط هو دون مستواك إلى حدٍّ ما. وعلى هذا لا تقول: كان هذا موضوع الأليغرو (الصوت السريع الحيوي) من سنفونية بيتهوفن الخامسة...». وهنا ستسمع على الفور: «ويلك، لا تحوِّلْ الانتباه عن الموضوع، وما عسى أن يعني هذا!». وفضلاً عن ذلك فأنت تثير حنق من يُنْحي عليك باللائمة. وذلك أن أساليب تحويل الانتباه التي لا يمكن تصديقها، كما يحدث في مهزلة الكهربائي الذي يريد أن يصلح المأخذ الكهربائي وهو في السرير - مثل هذا لا يضحك منه إلا الجمهور في المسرح، وعندما يقدم الزوج الذي ضُبط متلبساً، عشيقته المغوية على أنها سكرتيرته، وهي التي ظلّ معها بعد منتصف الليل مع أقداح الشمبانيا والمحار في فندق، يناقشان الوضع، عند ذلك لا يقتحم عليهما الجلسة سوى والدي زوجته.. على المسرح!

كلاّ، لا تستعمل إلا المعاذير التي تكون قابلة للتصديق بالنسبة للعاملين معك في الحياة المهنية، أي أنك تستعمل، بتواتر أكبر، في الحياة اليومية الأمثال والشواهد المألوفة على نطاق عام، وعند ذلك لن يجد المرء الشيء غير المألوف إلى حد ما، الذي استعملته ذريعة أو لصرف الانتباه، مدهشاً أو غريباً.

ويستطيع المرء أن يطبّق ذريعة الإذْهال تطبيقاً حسناً، عندما يعلم الناس جميعاً أنك امرؤٌ يسرك أن تصوغ ألغاز الكلمات المتقاطعة و(الجدول الكبير)، وأنك من المتحمسين للرياضة (فريتس وأوتمار فالتر)، وأن تضمّن كلامك من حين إلى آخر كلمة لاتينية (كاسيوبيا) أو أغنية منفردة (Arie). وتفيد عناوين الأفلام في صورة جسر للعبور (للجمال وحده نذرت حياتي)... (كازابلانكا). فأنعِش ذاكرتك من أجل ذلك، ببساطة، ذات مرة. وإنما هي رحلة بالخط الحديدي، ومطالعة كتاب كنز الشواهد - وسوف تتولاك الدهشة مما صادفت من كل ضروب الأقوال المألوفة، ومما قابلت.

ويلي هذا، هنا في صورة حافز، بعض الكلمات، المجنّحة من كتاب «اللاتيني».

٢- معاذير كتاب «اللاتينيّ»

ومن أجل هذا سيكون من المستحسن أن يكون سبق للمرء تعلّم القواعد الأساسية للّغة في المدرسة، أو إتقان الشواهد المعروفة على نطاق عام. وبذلك تتوصل، في الأغلب، إلى نتيجة مذهلة. وذلك أن موجّه السؤال يكون تفكيره أوّل الأمر مشغولاً، هنيهة من الزمان، بالقول المأثور، وسيكون قد سمعه، على الأغلب، في مكان ما - وهذا يعني بلا ريب...؟ ولا بدّ له أن يترجمه بسرعة. صحيح! وفي هذه الثواني الناجمة عن عملية تحويل الانتباه، تُحدِث، عن طريق الكلمات اللاتينية، الانطباع الخاص بالسيادة والاستقلالية والتفوّق، والسهولة، ثم إنك تثق بوجود هذه الثقافة العامة عند الآخر! ولذلك يُنصحُ بأن يكون لدى الآخر ثقافة مدرسية أو ثقافة عامة.

ومن الخطأ استخدام هذه الشواهد اللاتينية مع المرؤوسين والمستخدمين الذين لم يسبق لهم قطّ أن تمكنوا من اللغة اللاتينية، ومع شركاء الحديث الأجانب الذين لا بد أن يكون هذا التراث الفكريُّ غريباً عنهم. أي أنه لا يجوز أبداً استعمالها من أعلى إلى أسفل! فهذا باعث للغيظ، ويبدو المرء متغطرساً ذا عنجهية، ولا يثير في نفس صاحبه إلا نزعة المقاومة. أما في حالة الأطفال الكبار فنعم، إذ إن هؤلاء ينفتحون، ويتابعون استعمال هذه الشواهد.

وأفضل ما تصنعه أن تهيئ لنفسك - إذا كان هذا يوافق مزاجك - مخزوناً صغيراً من أمثال هذه «الكلمات المجنّحة»، التي تجدها بالطبع في كتاب الشيخ الطيب بوشمن (انظر أيضاً ثبت المراجع)، ولتنفذ الاختبار في فصل (من الكتب اللاتينية)، وسوف تفاجأ بكثرة الشواهد التي تعرفها، ولا يترتب عليك سوى أن تنعش ذكراها في ذهنك من جديد.» لقد وقعت ذات مرة، من جديد على هوراس، الشيخ الطيب وكنت أفكر بالأمس في القول المأثور (Carpe diem) (استمتع بيومك) - وهذا مع هذا الطقس!» أما الآخر فكان ينقّب تنقيباً سريعاً - هوراس - استمتع بيومك... لقد كان هذا بلا ريب، أجل، ما الذي كان هذا، مرةً أخرى؟ وتواصل حديثك مبتسماً، وتكون بذلك قد حوَّلتَ الانتباه عن السؤال المزعج: لماذا فَوَّتَّ على نفسك الموعد بالأمس؟»، بطريقة بارعة. أما خصمك فلن يرضى أن يكشف عن ضعفه، وسيسأل: ما الذي يعنيه هذا، مرة أخرى - (Carpe diem) (استمتع بيومك)، أو يُطرح عليك السؤال المزعج: «وكيف تستطيع إذاً أن تزعم هذا؟!». لقد سبق أن قال ديكارت عبارة متفوّقة في مودّتها،

obeikandl.com

وهي (أنا أفكر فأنا موجود) أو ترد عليه بهجوم مضادّ، بقولك (مع التحفظ - Cum grano salis)، كما قال الشيخ بلينيوس - (أي مع قليل من النكتة) - هكذا يستطيع المرء أن يرى الموقف.

وعندما تستعمل، في بعض الأحيان، عبارات (deus ex machina - الحل المفاجئ، غير المنتظر، بصعوبة ما) - أو (dies ater - يوم نحس) أو «vox populi - صوت الشعب، أو الرأي العام»، أو (in medias res - في وسط الأشياء) أو (in vino veritxas - في الخمر تكمن الحقيقة)، وهي التعابير التي تعدّ عامة بالفعل، فلن تلفت الشواهد اللاتينية النظر على الإطلاق.

ومن الأشياء التي يمكن استعمالها أيضاً، مثل هذا الجواب: «لقد قلت لنفسي في هذه الحالة (هانيبال هو الرئيس على أية حال، وهو المحص المزعِج الثقيل، وهو الذي أرجأت شيئاً بسببه).

أو المسألة المتعلقة بالضمير عند خصمك:»هل قلت هذا الآن لرئيسك أم لا؟ وترد أنت بقولك، بمعنى ملتبس، يصعب استكناهُ حقيقته: «philosophus mansisses» وتعبيرك هذا يعني أنك لا تريد أن تتحدث عن المسألة المزعجة الثقيلة على الفور، وستراهن على أن خصمك سيفكر أول الأمر هنيهة، وسيخلد إلى الصمت، ويفكّر ويقدّر: «ما عساه يعني بذلك: أتراني فهمت هذا حق الفهم؟» أم:

قد يدفع بك أحدهم إلى زاوية ضيّقة يحشرك فيها، قائلاً: لماذا اتخذت في صدد المناقشة، قراراً معيناً، وماذا كان ينبغي لي أن أفعل؟ لقد كانت المسألة تعني بالقياس إليّ، كما يقول إيسوب: هنا ينبغي أن

تكشف عما تقدر عليه، وهنا يجب عليك أن تتصرف، وتقرر. هذا إذا لم أشأ أن ألوم أنفسنا جميعاً». وبمثل هذا الشاهد تستفيد من لحظة الفزع أو الحرج، هذه الوجيزة عند خصمك. وإذا قُدّر للسائل أن يُلحّ عليك قائلاً، في غيظ وحنق: «وماذا يعني هذا الكلام الفارغ؟» عندئذٍ تترجم ببساطة، قائلاً: «كما سبق أن قلت - وماذا تبقّى لي! لم يكن لي مَهْرَب من أن أقفز، وبذلك أتغلب على الحاجز».

وحَذارِ أن تفرط في تطبيق هذا، فهو أمر غير مستحسن على وجه الخصوص مع مدرس اللاتينية. ولا بدّ لك أن تعلم بالطبع ماذا تعني الكلمة، ومن قالها، وفي أي مناسبة. على أن كتاب بوشمن الطيب يقدّم، بجملة واحدة، معلومات حول هذا.

ملاحظة هامة: لا تبادر أبداً، بعد هذا، وعلى الفور، إلى ترجمة الشاهد اللاتيني ذاته بعد الاستشهاد به! إذ ينبغي للآخر أن يفكر بادئ ذي بدء، وأن يُستثار، أو يسأل، وبذلك تتوافر لك فترة تركيز والتقاط للأنفاس أطول كثيراً.

٣ - معاذير الشواهد والأمثال

وثمة مرساة أخرى للإنقاذ تتوافر إذا لم يُحرِ المرء جواباً في اللحظة الراهنة، وبحث عن معذرة أو ذريعة، وهي الأمثال التي يتخذها المرء وسيلة مساعدة تحت تصرفه والأمثال التي تتحدث بالصور. وعندما تذكر مثل هذه الصورة تنزلق أفكار الخصم انزلاقاً آلياً إلى المستوى البصري، العيانيّ، وبذلك فحسب يكون قد تم تحويل انتباه الشريك. ولا بدّ له أن يحول الصورة إلى الموقف وإلى السؤال الذي طرحه عليك.

«لماذا وافق الرئيس على القرار حينئذٍ، مع ذلك، وكان في البداية قد احتجّ عليه بصوت بالغ الارتفاع؟!» - أو: «لقد أقسمت السيدة ماير بأغلظ الأيمان أن عربتها أحدثت الحفرة في السياج، والآن يتبين أن الذي فعل هذا إنما كان حفيدها هي، وهو الذي فعل ذلك بدراجته، وبمَثَل، وابتسامة تعبّر عن الكثير، تكشف بوضوح عن رأيك، غير أنك لاتُعرب عنه بقسوة. وأخيراً فالرئيس رئيسها، ولا بدّ لك أن تتخذ موقفاً حسناً من الجارة ماير - فأنت تحتاج إلى مساعدتها. إذاً فلتقل: «ربما كان العنب بعيداً جداً عن متناول الثعلب» (الرئيس)، و«من حفر حفرة لأخيه، وقع فيها». (السيدة ماير).

لقد تفاديتَ الإفادة الصريحة تفادياً غير مباشر، وببراعة، بالالتفاف عليها، بدلاً من أن تقول بصوت مجلجل: كانت المسألة كذا وكذا.

والمثل الدقيق الجميل يمثل حكمة ذات سريان عام: «أنت لم تفصح عن رأيك بكلماتك هذه! وعلى هذا يمكن تناقله بعدئذ. من دون تشويه، ولا مبالغة: «ثم شدّ الرئيس على نفسه وضغط، ولم يخرج إلا بالقليل - ويا لهذا من غطاء!»

«لقد أرادت السيدة ماير الغبية أن تتحاشى سيارتي وكلمة مني، وهي الآن ماثلة أمامي، وقفة بديعة، غبية - مع حفيدها المحبوب!» وهذا حكم شخصي بل عدوان - وليس بالحسن إلى هذا المدى! والمثل المعروف على النطاق العام غير ملزم، وقد يكون أحياناً غير ذي أهمية حقاً.

ولْتُجَمِّعْ هنا أيضاً مخزوناً! وينبغي أن يكون هناك أمثال محسوسة قدر الإمكان، وليست بالمفرطة في القصر! فلا يحسن، مثلاً، أن تقول: «الأمور بخواتيمها»، أو: «كل بداية صعبة»، بل خذ صوراً، مثل: «كان القميص أقرب إليه من الثوب» أي أن استفادتي أنا أهم عندي من استفادة الآخرين)، أو: «النقطة الدائمة تؤثر في الحجر»، أو «الكتلة الغليظة تحتاج إلى بلطة غليظة» - وسوف يخطر ببالك الكثير. على أن اللحظة التي يفكر فيها المهاجم قائلاً في نفسه: «أجل، أجل، هذا، أمر أعرفه... عجباً له، أوَهذا ما يقصد إليه - أم تراه يقصده على غير هذه الصورة؟ هذه اللحظة يمكنها أن تعينك على التخلص من الهجوم، والاتهام، والتمهيد لذريعتك أو تبرير موقفك شيئاً فشيئاً.

ذلك لأن خصمك لا يريد، في كثير من الأحيان، أن يكشف عن ضعف! إذ يكون في كثير من الأحيان، بالطبع، قد فهم المثَل في صورته البعيدة عن الواقع إلى حدٍّ ما، وما عاد الآن ينقّب كثيراً فهل تراه لم يفهمه أم فهمه فهماً غامضاً ملتبساً فحسب، وهل يدع المرء، في كثير من الأحيان، السؤال المقابل: «ماذا يعني هذا الآن، في حياتك؟» على أن الإنسان الذكي يفهم أيضاً ما يقوله المرء عن طريق الزهرة!.

٤- معاذير أعياد الكتاب المقدس

وثمة مصدر لا يكاد ينضب معينه، ويسهل استخدامه، من المعاذير، يتمثل في الشواهد المأخوذة من الكتاب المقدس. وأرجو ألا تقول الآن: «أنا لست مسيحياً، وليس لهذه الشواهد استخدام عندي» فأنا أراهن على أنك لا تعرف عن معظم التعبيرات المنقولة الآن، أنها من كلمات

obeikandl.com

الكتاب المقدس، «عندما يغريك الأشقياء فإياك أن تجري وراءهم!» هذا ما قاله الملك سليمان، ولم يقله ولهلم بوش. وما أحسن ما يستطيع المرء أن يستعمل هذا بأسلوب دبلوماسي: «واحسرتاه، لو أنني اتبعت نصيحة سليمان: «عندما يغريك...» وأنت لم تجب بقولك: «لم يكن في وسعي أن أقول لا، ووقعت على الشيك!» ومن الممكن أن يُجفل المُدان فزعاً، ويقول: «لماذا سليمان؟ فهذا يبدو مماثلاً لفيلهلم بوش!» وتقول متكدراً: لقد بُشّر بالحكمة قبل ثلاثة آلاف عام - ثم جعل الآخرون يثرثرون محاولين السير على هديها، عبثاً.

فكم من الوقت كسبت بهذا، أو: «لقد قال متّى: لا كرامة لنبي في وطنه» وأنت تتجنب قائلاً: «لقد كنت أعرف هذا منذ البداية!» أو: «ربما كان السيد ماير يريد أن يشارك في الفُتات الذي يسقط من مائدة الأغنياء» - من إنجيل متّى أيضاً (١٥ - ٢٧). وأنت لا تنطق قائلاً: «لقد قام السيد ماير بتغطية مصالبة الساقين!» وبهذه المناسبة فقد بشر متى ببضع حكم أخرى ذكية (٤٢١٧): «هنا يطيب المقام، هنا دعونا نبني الأكواخ، وهنا تصورت نفسها المؤسسة الثلاثون، بلا ريب!» وبذلك تكون قد مَوَّهتَ حكمك وألبسته ثوباً تنكّرياً، وهو الحكم الذي كان خليقاً أن يكون في العادة على النحو التالي: «هؤلاء الطفيليون لا يريدون إلا استجرار الفوائد لدى مؤسستنا!» «وكثير من الناس مندوبون، ولم يجر اختيار سوى نفر قليل!» (متى، ٢٠ - ١٦). وبذلك تكون قلت، بكلمة من الكتاب المقدس: «هاهو ذا السيد مولر الطيب يقدّر نفسه فوق قدرها إلى حد بعيد!». ومن المستحسن، في بعض الأحيان، أن يُقال، بدلاً من

اتخاذ الموقف الخاص، الصريح، الذي لا لبس فيه: «ألا ما أجمل ما قال متى (٢٤ - ٢٨) - حيث تكون الجيفة تتجمع الصقور - لقد أصبحت أعداد لا حصر لها من هذه الشواهد، في هذه الأثناء، تراثاً عاماً. وفي بعض الأحيان وصلت إلى الشكل الشائع اليوم، لأنها تعرّضت لشيء من الصقل من جرّاء الترجمات، وعمليات المراجعة والتنقيح، أم تُراك تعرف، أن مارتن لوثر، العلامة هو الذي بشّر بأن «من لا يحب الخمر، والمرأة والغناء، فسوق يبقى أحمق مأفوناً طوال حياته»؟

٥- الحكايات والأساطير والكلمات المجنّحة

العائدة إلى مشاهير الكتاب

هناك حكايات وأساطير، دينية وغيرها، لها تعبير معيّن في القصة التي تُسرد بها، وهو تعبير حقق لنفسه الاستقلال فيما بعد، مثل: «هانيمن، امضِ قدماً، فأنت صاحب الجزمة الأكبر!» وهذا البيت من الشعر يُقصد به السخرية في هذه الأيام، ويمثل إيماءة إلى امرئ متشدّق متبجح، إلى رجل يحسب أنه يتقن كل شيء على نحو فضل، على الرغم من أنه امرؤ غير ذي طائل، لا يُحسن شيئاً، ولا يقدر على شيء، وهذا البيت يسر الرفاق أن يستعملوه فيما بينهم مسرورين أيمّا سرور. فإذا ما تم استهلاله بجملة: «ها هو ذا، السيد ماير تصور نفسه: هانيمن امض قدماً إلى الأمام...» ظلت الشطرات ذات معنيين، وقد تم صك هذا القول المأثور في الأسطورة من قبل السوابيين السبعة - وهو على الدوام صورة للإنسان الساذج الأبله، ذي الوقاحة والتبجّح والهذر. وكان الطبيب الناجح جداً، وهو الدكتور صمويل هانيمن، المولود في ١٧٥٥/٤/١٠، والذي كان يدعو، في مضمار ما

يسمى (Homoopathie) إلى الأرض الجديدة بالنسبة لتلك الأيام، وتعرّض للملاحقة آخر الأمر من قبل زملائه الحاقدين الشامتين، بهذا الشعار الذي كانوا يريدون أن يتخذوا منه وسيلة للتهكّم عليه.

وثمة تسمية معدّلة لمن ساءت سمعته، وهو يتآمر، أو يلحق الأذى بالآخرين، وهي القول المسجوع الذي يرد ضمن حكاية أسطورية:

«يا لهنائي، إذ لا يعرف أحد،

أن اسمي رُمبلستِلتستشن!»

وربما استطاع المرء أن يتخذ من هذا ذريعة (أي وسيلة للمدافعة) - بدلاً من نشر رأيه الخاص، في الجواب القائل: «الزميلة المتآمرة، السيدة مولر، تحسب أنه ما من أحد لاحظ تكتيكها الذكي، في نشر البلبلة والاضطراب والطعن في الناس! إنه لخطأ! فقد نظر أحدهم فيها نظرة متغلغلة ثاقبة!» وأنت تستطيعين أن تقولي هذا، مثلاً، عندما تُسألين مباشرةً: «وما قولك في اتهامات السيدة مولر لرئيسنا؟» وجوابك: «كلا، كلا، إنها لتحسب أنها بخير: ألا ما أحسن أنه ما من أحد يعرف أن اسمي رُمبلستِلتستشن! غير أن رُمبلستِلتستشن ينشر ساقيه بنفسه، من فرط الغضب، حين يُكتشف مكره وخبثه!» وكل امرئٍ يفهم ماذا يُقصد، غير أنه يستطيع أن يقول دائماً: «آه، لم أزِدْ على أن استشهدت بمثال معروف من أسطورة» وأنتِ لم تذكري اسماً، ولم تزيدي على أن حوّلت الانتباه عن الاتهام المباشر من قبل الزميلة مولر. وهذا ما يُنصح به، بالمناسبة، في الحياة المهنّية!

ومما يُستحسن، في حالة الكلمات المجنحة التي يتخذ منها المرء

ذريعة، أن يضيف المرء قدر الإمكان، إلى بيت الشعر، أو إلى الشاهد، اسم المؤلف أو المصدر (السوابيّون السبعة، وبالتالي، أسطورة رُمبلستِلتستشن) ويستطيع المرء أن يلاحظ هذا بإتقان بالغ، وفضلاً عن هذا فإن هذه صورة من صور تدريب الذاكرة.

ومثال ذلك:

«عجباً، هل تعلم أن ليسنغ قال، قبل مائتين وخمسين عاماً:» من لم يفقد عقله من جرّاء أشياء معينة فلن ينتهي إلى فقدان عقله!». على أن ليسنغ والسنوات المائتين والخمسين سيؤخران عند الخصم ردة الفعل. وهذا الشاهد ينصب جسراً فوق ثانية الخوف عندك، من الهجوم المحتمل: «ما قولك إذاً في عمليات التشريح؟ أما أولئك الذين ينتمون إلى الإدارة فلا ريب في أنهم قوم سوء محتالون، وخنازير كذابون! وحتى عندما ترى الرأي ذاته – هل يفترض أن تقول «نعم»؟ عند ذلك يعني هذا، بسرعة بالغة: «لقد أكد فلان ذلك...» وليس معك شيء!! لقد استشهدت بليسنغ! وأمثال هذه الحشوات ينصح بها على وجه الخصوص عندما يكون هناك فرد آخر في المكان موجّه الاتهام. وما أسهل أن يَردِ عندئذٍ، في تقرير محتمل، قولهم: «لقد ذهب فلان إلى وجهة النظر القائلة إن السادة العاملين في الإدارة قوم سوء محتالون كذابون» وهذا أمر ليس بالمستحسن!

ومن الممكن أن يساعد على الخروج من موقف حرج قولنا: «من يضحك هنا؟ بالله، إني لأعتقد أنني أنا الذي أضحك! – كما يقال في

مسرحية إميليا غالوتي للشيخ ليسنغ»، وبذلك تدفع عن نفسك اتهاماً. ويمكن لهذا: أ) أن يمسَّ أحداً ما من محيط الزملاء، ب) وأنت نفسك تشعر أنك قد ضُبطت، وتكسب الوقت بذلك لكي تتخلص من الموقف.

ومن الوسائل التي يمكن استعمالها، ومن المؤسف أنها يمكن أن تستعمل من أجل مؤامرات حقيقيّة أو زائفة، قولهم: لقد عرف هذا ماتياس كلا وديوس قبل مائتي عام: لا تتدخل في عش زنابير، ولكن إذا تدخلت فليكن تدخلك شديد البأس مُحكماً!» أو قولهم: «لقد عرف غوتفريد أوغست بورغر قبل مائتي عام: عندما يلسعك لسان الخطايا فدع هذا يقول لك مواسياً: إن أردأ الثمار ليست هي التي تقرضها الزنابير!» وعلى هذا فمن كان في وسعه أن يحتفظ بالأشعار في ذهنه احتفاظاً جيداً تماماً، ينبغي له أن يستغل هذه الموهبة. وذلك أن معظم أبيات الشعر أو القوافي إنما هي دفاع ضد مآخذ تورطت أنت فيها، أو ينبغي لك أن تفصح عما في نفسك حيالها. وهذا يعني أنها تعدّ قبل كل شيء، تدبيراً وقائياً في مجال الحياة المهنية.

والرجاء أن تلاحظ: الجرأة شيء رائع. وما من شك في أن المرء يجازف، في حالة الجرأة، بحياته، ولا تتحول الجرأة إلا في بعض الأحيان إلى سلاح يرتدّ عليك أنت، ومع ذلك فأنت تكسب، عن طريق استراتيجية الشواهد والأمثال، الوقت وإمكانية التفكير والتروّي. فهل تفيد الحقيقة الجريئة والصادقة، فائدة مُجزئة، في هذه الحالة؟ ولتتمسك في الأحوال النادرة بكلمة تيودور شتورم الجميلة (١٨١٧ - ٨):

«التروّي هو الزهرة ذات المعدن الأنبل على وجه الإطلاق، ومع ذلك ففي بعض الأوقات تكون الألوان الذهبية من التروّي، وإقدام المرء من دون أن يلوي على شيء منعشة كالعاصفة!» وهنا تجد بعض الشواهد والكلمات المجنّحة التي سوف تستعملها جزئياً بنفسك، والتي تعبّر عن الكثير حيال وضعٍ ما، وتقدم معلومات عنه، على أن الذي صكّ هذه الكلمات هو، دائماً، رجل أكثر أهمية منك!

غوته/ إيفجيني: المرء يتكلم بالكثير عبثاً، لكي ينتهي إلى التقصير والعجز، والآخر لا يسمع من كل شيء إلاّ «اللاّ» (وهي ملائمة من وجوه متعددة، عندما يجري إعلان قرارات النقابة، وقيادة المؤسسة، وممثليات الاتحاد التي كانت، وتكون النتيجة في حكم المعدومة، فأعرب عن رأيك عن طريق هذه الزهرة!

ومما يلائم أمثال هذه المواقف وما شابهها: ما يقوله غوته/ فاوست: ليت الدماغ لم تتبدد كل آماله فحسب، وهو الذي ما يفتأ يتعلق بما هو سطحي ضحل.

وينقّب، بيد ملهوفة، عن كنوز، ويقرُّ عيناً إذ يجد ديدان المطر!».

أو من غوته/ فاوست، أيضاً: «وذلك أنه حين تُفتَقد المفاهيم، تحلّ كلمة ما في الوقت الملائم، وبالكلمات يمكن التنازع والاختلاف على نحو ممتاز!» ومما يتسم بسمة النكتة حقاً يوهان هاينريش فوس، الذي قرر قبل مائتي عام أن: «الجديد في هذا ليس بالمستحسن، والمستحسن فيه ليس بالجديد!».

أما أقوال شيلر المأخوذة من مسرحية فيسكو فيستطيع المرء أن يستعملها مع التعديل – وما من شك في أنها معروفة، من قبل، حق

المعرفة: «لقد أدّى العبد ما عليه، وفي وسع العبد أن يذهب». وهكذا يستطيع المرء أن يعبّر تعبيراً دبلوماسياً عن خروج زميلٍ له من المؤسسة، إذا ما سُئل.

أو: يتسامع الناس عن سرقة واختلاس على مستوى عالٍ، ويكون عليك أن تفصح عن موقفك من هذا. فلتستشهد، بأسلوب دبلوماسي»، بقول هاينريش هاينه: «ماذا يعنيني من الزوجة، وماذا يعنيني من الأطفال، فليخرجوا للتسوّل، إذا ما أصابهم الجوع!».

وهل تعرف، بالمناسبة،

أن التنبؤ بالطقس الذي بات شائعاً جداً في هذه الأيام يرجع أيضاً إلى هاينريش هاينه؟ ففي عام ١٨٥٠ قال «صيفنا ليس إلا شتاءً تعلوه خضرة»، أي أن هذا التنبؤ كان موجوداً قبل ١٥٠ عاماً. وقد خلّف لنا فيلهلم بوش فيضاً من الأشعار المتداولة، تحولت إلى تراث مشترك عام: «ظلّ الضفدع ثلاثة أسابيع يعاني من مرض شديد، والآن عاد يدخّن، والحمد لله».

أو: «كان هذا المقلب الأول، ولكن الثاني يليه على الفور».

أو: «النبيذ الأحمر للشيوخ من أفضل الأُعطيات».

غير أن هذه الأشعار ليست ملائمة من حيث كونها معاذير! فما من أحد يحتاج إلى مجرد ثانية ليفكّر فيها.

وعلى هذا فالرجاء أن تلاحظ:

أنت في موقف لا تريد فيه، أو لا تستطيع، أن تجيب عن سؤال مباشر، إجابة مباشرة، بالتأييد أو المعارضة، وعلى هذا يكون لديك شاهد ملائم تحت تصرفك، تصرف به الانتباه، ولا تقدِرَنّ الأمور دون قدرها: فإن موجّه السؤال، أو الاتهام يتعرض من جرّاء ذلك لثانية من الفزع أو الإذهال، على الأقل، أو الاستثارة، فكيف تراه يحسب هذا؟ لقد توقف مجرى أفكاره، وبذلك توقف هجومه الموجّه الهادف إلى نقطة معينة، ولا بدّ لكليكما أنت وهو، أن تعودا في الحقيقة إلى نقطة الانطلاق من جديد، ولكن المسألة فقدت مفعولها الأول.

ونصيحتي: جرّب هذه الأساليب في تحويل الانتباه في مناسبات بريئة: حماتك تشكو للمرة المائة من ارتفاع صوت الموسيقا القادم من الجارة، وصديقتك تسأل بإلحاح، هل ينبغي لها أن تهدي إلى أبيها قميصاً أو ربطة عنق. وتستفيض الزميلة الحسناء في الحديث عن الزوج الودود. فلتجرّب ذلك! ولتستعمل شاهداً جيد الملاءمة، وسوف تلاحظ أن ذريعة الاستثارة تؤدي عملها جيداً!.

٦- معاذير المشورة

ومن المركبّات الكبرى، والواسعة النطاق، الخاصة بالمعاذير البارعة، الأجوبة التي تقدّم إلى من يلتمس المشورة، وهي مُغرقة في القدم، مشهورة منذ أكثر من ألفي عام، ويجد المرء في هذا المضمار أساتذة جديرين بالتنويه إلى أقصى الحدود.

وأشهر هذه المشورات التي ما زالت باقيةً حتى اليوم مشورة كُهّان دلفي في بلاد الإغريق، ففي معبد دلفي كانت تتصاعد أبخرة من صدعٍ

في الأرض يفترض أن تحفّز الناس على الاستلهام. وكانت تتحدث الأساطير بأنه كانت تقعد في بطن الأرض، بيثيا على مقعد ثلاثي الأرجل، وتبشر الحجاج بحكمتها. وكان هذا طقساً مقدساً، وكان الناس يتدفقون إلى هذا المقام ليحصلوا على نصائح تتصل بالحياة، وكانت أقوال العرّافات المأثورة تُتلى على أولئك الذين يصيخون السمع، من قبل الكهنة. ومع ذلك فقد كان يظل يُقال إنه ينبغي التروي والتفكير في الأجوبة، فمن دون إصغاء السائلين بأنفسهم وتمثّل ما يسمعون ستبدو هذه الأقوال المأثورة غير مفهومة، وبذلك لا تفصح عن أية دلالة.

وكان يفترض في طالبي المشورة أن يُصغوا ويفكروا لكي يقرروا بأنفسهم في النهاية. وثمة مثال على ما يقال من التباس معنى الأقوال المأثورة: حين أراد الملك كرويسوس، ملك ليديا أن يشن الحرب على الفرس، طلب مشورة الكهان، وجاء قول بيثيا: «عندما يعبر كرويسوس نهر أليس سوف يُدمّر دولة كبيرة»، وسُعد كرويسوس بهذا البيان، وبدأ الحرب واثقاً بالنصر، ولم يكن قد تروّى في مسألة الحرب، إذ قال في نفسه - متعامياً عن نفسه - إن مملكة الفرس سوف تنهار، فضحى، ولكن بهزيمته، بمملكته هو، صاحب المملكة الكبيرة.

فهل كذبت بيثيا؟

كلاّ

هل أدلت إذاً بالحقيقة؟

أجل

وما من شك في أن الملك لاحظ هذا بعد فوات الأوان.

أما هو فكان الجواب بالقياس إليه صريحاً لا لبس فيه - ومع ذلك فقد كان خاطئاً. فهل استعملت بيثيا صياغة يستطيع المرء أن يلويها كيف يشاء؟ وربما كان هذا ذريعة كي تُوكل إلى الملك مسألة العثور على الحقيقة؟

ومثلما فعلت بيثيا وكاهناتها في دلفي، قدّمت الكاهنات إجابة على الأسئلة في صورة مشورة، ومثلما فعلت ذلك كاهنة كومي في إيطاليا.

وإليك مثال على ذلك: لأنه أنموذجي على نحو لا يكون في حالة أي مثل آخر. سأل محارب، قبل أن يخرج إلى الحرب - عن مصيره، وفكّرت الكاهنة وأعلنت قائلةً: «أن تخرج إلى الحرب، وأن تقاتل، وأن تموت فلا - مجيء إلى البيت».

وهذه صياغة، ولكن كان من الممكن أن يكون ثمة صياغة أخرى، تُصاغ على النحو التالي، بحيث لا يمكن تغيير حرف فيها:

الخروج إلى الحرب - والقتال - والموت - وعدم المجيء إلى البيت.

والمسألة تتوقف على نقاط الوقف، ولكن هذا أمر ظاهري، وينبغي للمحارب أن يفكر. أمّا الصياغة الأولى، مع التوكيد على كلمتي «تموت فلا»، فيمكنها أن تجعل المرء ذا خفة وبطرٍ وطيش، غير أنها تستطيع أيضاً أن تهب للمحارب يقيناً داخلياً. وأما الصياغة الثانية «تموت - ولا تعود إلى المنزل، فهي أقرب إلى أن تجعل المحارب من المؤمنين بالقدر وحتميته. وإذا كان الموت شرفاً فسوف يناضل هذا

المحارب حتى آخر قطرة من دمه ليظفر في الدار الآخرة بكل ألوان الشرف وذلك لأنه بطل شجاع.

وإذاً فالمحارب نفسه يستطيع، وينبغي له أن يقرر، وعلى هذا القرار تتوقف كيفية خروجه إلى المعركة. فلا بدَّ له أن يعرف هل يريد العودة إلى البيت. أم يريد أن يموت مكللاً بكل ألوان الشرف. وبذلك يكون بالفعل عند نواة المشورة الأمينة على معناها، والتي لا علاقة لها بالتنبؤ.

لقد أخلدت المشورة وكاهناتها، بطاقتهن الصوفية، إلى الصمت منذ أكثر من ألفي عام، وما عدن يوجهن إلى طرق ما. على أن ازدواجية البيانات التي كانت في الحقيقة مخصصة للعثور على الجواب في روح المرء ذاته فُسّرت فيما بعد بأنها التكلم بلسانين». وعبارة «يتكلم في إلهامات المشورة، تعني اليوم أنه لا يعرف ما يقصد إليه - هكذا، أو هكذا، فهو يتحدث حديثاً ملتبساً ليس له معنى محدد، ويلتمس عذراً، مثل: اغسل فرائي، ولكن لا تبللني!»

لقد تغيّرت العصور - وبقيت الأسئلة، ومع ذلك فمن كان يعاني اليوم من مشكلات يطرحها أمام عالم في النفس أو مستشار في الحياة، ويتحدث إليه في ذلك. أما الاعترافات بالذنوب فيدلي بها المرء إلى كاهن أو يعترف بها إلى إنسان قريب إليه.

وبذلك يوضع من يُسألون في كثير من الأحيان، أمام قرارات حاسمة صعبة جداً: كيف ينبغي لي أن أجيب، وبماذا أجيب؟ ولا يستطيع المرء

obeikandl.com

إلا أن يرغب في أن لا تكون النصائح معاذير. ففي معظم الأحيان يعترف المرء بمحن نفسية بالغة الصعوبة.

وثمة نوع شديد الازدهار من «الأقوال التكهنية تستطيع أن تقرأه في كل يوم في الجريدة، وفي المجلات.

إسأل السيدة إريكا فون دير هايده

ضع ثقتك في البروفسور الدكتور العليم الخبير

ومن الواضح للعيان أن أعمدة مقدمي النصائح في الصحف تتمتّع بشعبية كبيرة، وهي تفيد، بلا ريب، في بعض الأحيان أيضاً في صياغة رسائل وهمية من القُرّاء تتضمن المشكلات الشائعة - من قبل محرر دار النشر.

وتسأل ماريانه ب، من بينسهايم. «منذ ثلاثة أسابيع اشتبهت في أن زوجي له صديقة يزورها كل خميس. ويقول لي إنه يحتاج كل مرة في الأسبوع إلى الأمسية الخالية ليرتاد المقاصف وأماكن اللهو. فكيف ينبغي لي أن أتصرّف؟» والسيدة إريكافون دير هايده تُدلي بالحل التكهُّني التالي: «أنتِ في وضع صعب: فأنت تعتقدين، من ناحية، أن زوجك يزور صديقة، ولكن ليس لديك براهين، لأنك لا تعلمين أين تسكن الصديقة. وعلى هذا فمن الممكن أن يذهب لاحتساء بضعة أقداح صغيرة من البيرة. وأنت تعلمين من ناحية أنه لم يَزُر، منذ أسابيع، كل المقاصف التي تعرفينها، ونصيحتي: أنه إذا كانت له صديقة فلا بدّ لك أن تُقدمي وتتدخلي بقوّة وتستخلصي نتائج جدية، أما إذا لم تكن له

صديقة فمن الممكن أن تؤدي شبهتك الخاطئة إلى القضاء على الانسجام في زواجك. وعلى هذا فلتحاولي البحث الدقيق في المسألة لكي يتأكّد سوء ظنك، مع الأسف، أو يُسعدك الحظ بأن تكون شبهتك لا أساس لها».

لقد تركت المتكهنة إريكافون دير هايده، بحكمها، كلا البابين الصغيرين مفتوحين وتركت للسائلة مسألة اتخاذ القرار الحاسم! فيالها من ذريعة بارعة تخفي بها جهلها الكامل بالموقف - وإنه لموقف لا تستطيع أن تعرفه أو تحكم عليه على الإطلاق! غير أنها تعرف أن حالتنا النفسية الراهنة، ووضعنا، يحملاننا على الميل، ميلاً مطرّد الزيادة، إلى جانبٍ معين بحيث لا نعود نلاحظ الطريق الثاني بوضوح أبداً، ونكون على يقين بأن: «إريكافون دير هايده حَزِرَتْ أيضاً، وينبغي لي...».

وإريكافون دير هايده تزن جوابها في كل مرة تقريباً بعناية. «ابنتي في الثالثة عشرة، وهي تذهب كل مساء مع صديقاتها إلى نادٍ للشبيبة. وكثيراً ما تأتي إلى البيت متأخرة. وأنا أربي ابنة وحيدة، فماذا ينبغي لي أن أفعل؟ ولست أدري ماذا تصنع إيفون هناك، وأخاف عليها».

وإريكافون دير هايده لا تعرف الأم ولا الابنة، فضلاً عن أن تعرف المكان والمحيط، غير أنها تستطيع أن ترشد إلى الطريق الصحيح في بضعة سطور: «في هذه الأيام تتمتع الشبيبة على أية حال بكثير من الحريات، والحظر لا يجدي هنا شيئاً على الإطلاق. وعلى هذا فالأفضل أن تحاولي أن تظفري بثقة إيفون، وتقيمي حفلة صغيرة،

وتكوّني لنفسك بذلك صورة عمّن تعاشرهم إيفون، بل ربما أُتيح لك أن تجمعي بين كلا الأمرين معاً». وفي كثير من الأحيان تكون نوعية النصائح الجريئة التي تتفتّح على الورق، مدهشة - وذلك من دون أية معرفة بالواقع! وعلى الرغم من أن إريكافون دير هايده تحمل الدبلوم في علم النفس، وتثبت أهليّتها، فإنها تتحاشى، ببراعة، المعاذير المبنية على حكم مؤداه: «من ناحية أولى - ومن ناحية ثانية».

على أن المعلومات التي يقدمها الدكتور العليم الخبير يمكن أن تكون أشد خطراً. وذلك أن السيدة ريناته م. س. فونزيدل، تسأل: «أنا أعاني على الدوام من متاعب في الركبة، فماذا أصنع؟» والجواب: «يمكن أن تكون لمتاعب الركبة أسباب مختلفة. فلتحاولي أول الأمر المشي الخفيف، والتجوال والسباحة، ويمكن للرياضة البدنية الهادفة أن تكون مُجدية مسعفة على وجه الإطلاق، مع الكشف والمعاينة بالطبع، لتعرفي الإسعافات المجرّبة، وفي حالة الضرورة يتم إجراء عملية، وينصح بطعام يحتوي على الكثير من الفاكهة والخضار والكثير من المشروبات، والهضم المنتظم ووزن جسم متناسق مألوف؟ إن المرء لينطوي في كثير من الأحيان على انطباع مؤدّاه أن إدارات التحرير ينقل بعضها عن بعض. وعلى كل حال - فماذا يُفترض في الدكتور العليم الخبير أن ينصح به مادام لم يرَ المريض قط من قبل؟ إن كل النصائح تظل عامة، غير ملزمة، ضبابية الحدود والمعالم. وهو يستطيع أن يضمن لنفسه نجاحاً كبيراً إذا ما نقص وزن السائل مقدار كيلو واحد.

وأفضل تلاميذ الأقوال التكهّنية وحكم الدلفي مؤلفو الكتب التي تتناول تحليل الشخصيات. أما تقارير الخبراء الخطية حول خرائط البروج والخطوط اليدوية فتكتب عن طريق الحاسوب وتفسيراته المتعددة الجوانب.

ومثال ذلك: أن ما يتسم بالشفافية الشديدة عندك الاستغراق المنطوي على الاهتمام والواقي، في بيئتك ومحيطك. هنالك تكون مستعداً لبذل كل التضحيات، غير أن اعتدادك بنفسك وشعورك بقيمتك الذاتية يجعلانك في حاجة إلى الاعتراف المطلق. فأنت تظل متواضعاً، لا تلفت النظر، في الخلفية - ومع ذلك ففي أحد المواقف الحاسمة تمسك، بجرأة، بالثور من قرنيه، وتمسك بزمام المبادرة» - ولتُلاحظ - فإن بيثيا تهدي إليك التحية!

وبالطبع فنحن ننطوي على القطب المعاكس، من كل الاستعدادات، أيضاً - وهذا ما تتكهّن به كل أقوال العرافة والكهانة. وهي توافق كل امرئ، على الدوام تقريباً، في أغلب هذه الأقوال! ولا عَجَب في ذلك. فالحاسوب لا يعرفك، غير أنه يستطيع أن يفرّق ويميّز، عن طريق السنّ، والجنس، والمهنة، بعض الأمور. ولما كان القطب المعاكس يأتي دوره في الكلام في كتب تحليل الشخصيات، مستكناً بدرجة تقلُّ أو تكثر، ففي وسع كل امرئ أن يبدأ بالمعلومات. ففي الوضع النفسي الذي توجد أنت فيه الآن بالضبط، تقرأ، على وجه الدقة، القطب الذي ينطبق عليك الآن، وتسمع بدقة الكلمات التي تبدو كأنما صُكّت خصيصاً من أجلك. والرجاء أن تجمع أنصاف الجمل في تحليل الشخصيات، بعضها إلى

بعض «لمّا كنت شديد الوضوح في استغراقك الواقي، والمنطوي على الاهتمام، في بيئتك، فأنت مستعد لبذل كل التضحيات... وتظل لا تلفت النظر، متواضعاً، في الخلفية». وعندما تكون في هذا الوضع الحياتي والنفسيّ على وجه الخصوص، تستطيع أن توافق على «صورة شخصيتك» كل الموافقة. «غير أن اعتدادك بنفسك، وشعورك بقيمتك الذاتية، يحتاجان، من ناحية أخرى، إلى الاعتراف المطلق... ففي موقف حاسم تمسك بالثور من قرنيه، وتمسك بزمام المبادرة» ماذا، أوَلا يصح هذا يا ترى؟ لقد عقدت العزم لتوّك، على أن لا ترتضي الانتقاد العيّاب الدائم من قبل حَماتك وأن تراها تقف موقف المتَعرِّض للاستجواب من قبل كل أفراد الأسرة. وعلى هذا فتحليل شخصيتك يتوافق مع هذا الموقف بدقة بالغة! على أن العرّافات الحديثات ينطقن بمثل التركيبات الكلامية التي كانت تنطق بها بيثيا من أجل الملك كرويسوس. ثم إن هذه لم تكذب، وكذلك لم يفعل هذا محللونا الحاليون، بما في ذلك الحاسوب، ويستطيع المرء أن يفهم ازدواجية الاتجاه على أنها ذريعة: إذ يتم اجتناب القول المباشر الأحادي الجانب.

غير أن المرء يستطيع أن يقول، قولاً حسناً بالدرجة ذاتها، كيف كان يترتب على القارئ والسامع أن يفصل في المسألة في أيام العرّافة بيثيا، وأيّ جانب عنده كان يجري التطرق إليه.

ولكن في أغلب الأحوال لن تؤخذ إريكا فون ديرهايده، ولا الدكتور العليم الخبير على محمل الجدّ تماماً. والمسألة أقرب إلى أن تتمثل في موضوع في التعرّف أو التمييز:

«إذاً فكلاهما ينطوي على مِثْل ما أنطوي أنا عليه من الهموم»، وأنا الذي يظل يملأ أعمدة مقدّمي النصائح بالموضوعات ذاتها عاماً بعد عام.

وعلى النقيض من هذا، يقف التحليل الفردي للشخصية، وهو تحليل يعدّ، على الأغلب، حاداً في مرحلة التطور أو مرحلة الأزمات، ويعدّ بمثابة التوكيد لوضع صعب - سواء أكان ينطبق علينا أم كان آتياً بمحض المصادفة.

٧ - معاذير رجال السياسة

وفي كل العصور كان نوع من الناس يعتمد، ومازال يعتمد على فيضٍ من المعاذير التي نظل نسمعها، المرة بعد الأخرى، والتي تظل تتساقط علينا كالرذاذ، دائماً وأبداً، وتُكْتَب ذات مرة بمداد أسود، ومرة أخرى بمداد أحمر وأخضر، ويتم التبشير بها، ناضجة قد استكملت مذاقها على وجه الخصوص قبل الانتخابات، ويجيء تكرارها بعد الانتخابات، وتُدحض من قبل الجانب الآخر. وفيما بعد يتم تزويقها، والتعزية بها، وإرجاؤها، ويكثر الحديث عنها إلى حدّ الإملال، وتُنسى. وهذه هي خُطب الساسة المتعددة الجوانب، ولأن أحداً لم يحقق ما وعد به، اخترع القوم نظاماً جديراً بالتنويه، وهو الالتفاف على السؤال المباشر وتحاشيه، عن طريق نأي المرء بالسؤال المباشر عن نفسه، وتحويل مسار الموضوع ببراعة، بالأسئلة المقابلة. وإذا لم يكن من الممكن على الإطلاق سلوك سبيل آخر، يتم اللجوء إلى «إجراءات اضطرارية» للاعتذار عن تبدّل السياسي نفسه، وهو التبدّل الذي لم ينشأ إلا من جرّاء ردّ الفعل المقابل، من جانب الآخرين - وبذلك لا يكون السياسي في الحقيقة أبداً هو المتسبب، بل يكون ضحية من ضحايا الجانب المقابل..

ولتلاحظ شيئاً، ما فبسطوري هذه الثمانية يكاد هذا يُعدّ جملة كالدودة الشريطية، كما يحبها السياسيون، كي يحوِّلوا الانتباه بسلوك الطرق الجانبية الملتوية، ويتجنبوا، بذلك، جواباً. وفي هذه المضمار يُعدّ كل الأساتذة - مدرَّبين ومهيَّئين.

ويعد تكوين فن الخطابة عند الخاسرين على الدوام من أشكال الظُّرَف الخصوصية في الانتخابات. ويتساءل المتفرج بعد ذلك مذهولاً: تُرى هل خسر هؤلاء الانتخابات... أم كسبوها؟

ويكون السؤال الأول الموجّه من قبل المراسلين إلى ممثلي كل الأحزاب: «ماذا تقولون في هزيمة حزبكم؟ والجواب: «دعني أولاً أشكر كل ناخبينا الذين أعطونا صوتهم بتعبئة لم يُسمع بمثلها، وبالتزام كبير، وهذا هو التوكيد لسياستنا في المضيّ قدُماً في الطريق الذي سلكناه مع ما اقترن به من الأهداف التي رسمناها لأنفسنا - على الرغم من أننا خسرنا أصواتاً في هذه المرة بلا ريب، ولكن لا تنسَ أن نتيجتنا في الانتخابات الأخيرة في إقليم س، وكذلك في إقليم ع، كانت فوق الوسط، حتى لقد كان من الطبيعي أن تأتي التوقّعات، متماشيةً مع هذا...». وهكذا تتواصل المسألة على شمّاعات تُعْجِبُ وتروق، وكلمات طنّانة رنانة، إذ تُزال صورة كل هزيمة، وكل خسارة بتواريخ، ووقائع، وأرقام ترجع إلى أيام مضت، فيما يشبه الوهم، وهو تكتيك جدير بالملاحظة دُرِّبت عليه بالطبع الأحزاب والممثلون لها من كل صبغة ولون، وذلك في الحقيقة، على النمط ذاته.

والرجاء أن تنتبه ذات مرة إلى هذا! فإن من المضحك مدى التشابه بين حجج كل الخاسرين، وكيفية إنشاء الأجوبة تبعاً لمبدأ العرّاف: في وسع المرء أن يعدّ هذا هزيمة - غير أنها ليست كذلك في الحقيقة، عندما يُدخل المرء في حسبانه الظروف، والشروط الأولية وأوجه النجاح التي خلفناها وراءنا. وفي هذه الأثناء ينتقل القوم، بلا ريب إلى التسليم، مع أشكال من التقييد، بانهيارات جسيمة في أصوات الناخبين. «ما من شك في أن قضية الفساد س واستقالة المسؤول ع، والهزيمة الانتخابية في البلد المجاور ق قد أسهمت في...».

ولا بد للكتّاب القاعدين وراء الكواليس، الذي يكتبون باسم الساسة الكبار، ويمثلون قوى التدريب السياسي، أن يتصرّفوا، لدى اختراع المعاذير للناطقين باسم الحكومة، بأقصى قدرٍ من الدبلوماسية والسفسطة والجدل المذهبي، فهم يمثلون في هذا المضمار قوى الطليعة، ويوازنون بين الكذب والحقيقة، على حافة التعبير القائل (سواء كذا - أم كذا) على أن كلامهم جدير بالإعجاب، أما أن يكون محلاً للطموح إليه فذلك ما لا تتطرّق إليه.

٨ - المعاذير في مجال المحاسبة

وعلى الصعيد ذاته تتحرك التقارير التي تسمى تقارير المحاسبة الخاصة بالمصارف والمؤسسات التجارية أو الصناعية، والمشروعات. وهي تتعرض في الحقيقة لخسائر هائلة وتعلن إفلاسها. غير أن معاذير المتحدثين باسمها تموّه هذا بالقول إنه اندماج وتحويل للبُنى. ولما كان هناك، على الدوام أيضاً، ذرّة من الحقيقة تختلط بهذا، ولا يوجد كذب مباشر بصورة كاملة، فإن القوم يسمّون هذا بالمجادلة أو اتِّباع التكتيك البارع، ويلطّفون ويدورون حول الحقيقة المرة المتمثلة في الأعداد الجمّة من عمليات التسريح.

والرجاء أن تفكر: فهذه المعاذير، وهذه الأكاذيب المزوّقة، أو الحقائق المصوغة صياغة غير مألوفة تقدّم إلينا في وسائل الإعلام، وفي الصحافة في كل يوم من قبل أشخاص يتقلدون المناصب ويتحلّون بمظاهر الشرف وبأعلى قدر من المسؤولية! فلماذا لا ينبغي علينا أن نستعمل هذا التكتيك كي نحافظ على صورتنا الخاصة، ولنتجنب أشكال المسّ والانتهاك، ولنفلت من أشكال الإذلال وإلحاق العار بنا؟ ونحن لا نحاول إلا النجاة بجسدنا، بل ربما إنقاذه. وعلى الأغلب تتحرك معاذيرنا في محيط محدود من الحياة اليومية، وعلى الأرجح في الحياة المهنية، وذلك في الحقيقة تبعاً للنمط الشائع التالي:

أ) الناس ينسبون إلينا ذنباً أو تقصيراً أو خطأً.

ب) الناس يشتبهون فينا، أو يتهموننا بارتكاب أخطاء، وأشكال من التقصير أو الإهمال. وليس لدينا عذر، ولا اعتذار ولا تبرير.

ج) الناس يوردون أسماءنا في سياق واحد مع أخطاء مزعجة، غير أنهم لا يستطيعون أن يثبتوا هذا أبداً، أو يصعب عليهم إثباته.

القواعد الذهبية للحياة في مضمار المعاذير

١ - الإنسان لا يكون هو ذاته مذنباً أبداً.

٢-الآخرون كانوا هم المذنبين.

٣- الظروف هي التي أدت إلى ذلك.

obeikandi.com

وفي كل فروع المهن تقريباً، وفي كل مجالات العمل، تُرتكب الأخطاء ذاتها دائماً أو تُكتشف أو يُشهّر بها! وهذا أمر ذو أهمية حاسمة بالنسبة لردّ الفعل الصحيح عليها!

ففي مصنع السيارات قلّما تُرفع ملامة تقول:«يا سيد ماير، لقد أُخرجَت هذه السيارة، وأُرسلت إلى مؤسسة س في وقت جدّ متأخر، فقد انقضى الأجل النهائي، وهناك أخطاء في بيان الأجل، في الرسالة، والخسارة هائلة.

وفي عيادة الطبيب سيكون من الصعب أن يسمع المرء النداء الغاضب: «من منكم ركّب شريط الكهرباء قبل أن تُصبّ الأرضية على أرض الغرفة!». ونريد فيما يلي أن نضع بعض الفئات المهنية تحت العدسة المكبّرة، وكذلك معاذيرها الشائعة، المعروفة على نطاق عام، وتظل تزعجنا المرة بعد الأخرى.

obeikandl.com